الأستاذ رشيد بن مالك
المحاضرة الرابعة في مادة السيميولوجيا
طلبة السنة الثالثة ليسانس
شعبة الإعلام والاتصال

حتى نفهم التطوات العلمية اللاحقة في مجال البحث الدلالي، والتحولات التي عرفها المشهد السيميولوجي بأوروبا وانعكاساتها أيضا الإيجابية والسلبية، وبنسب متفاوتة على المشروع السيميولوجي العربي، سنستعين بالوثيقة التاريخية المهمة التي حررها كلود بريمون في أعقاب المؤتمر الدولي حول السيميائيات المنظم بكازميريز Kazimierz ناد وصلة(بولونيا) من 12 إلى 18 سبتمبر 1966 تحت رعاية أكاديمية العلوم ببولونيا[79].

وقد حضرت اللقاء مجموعة من الباحثين نذكر منهم ستاينيتز W. Steinitz(جمهورية ألمانيا الديمقراطية)، سورينسين S.H.Sorensen (الدنمارك)، جاكوبسون R. Jakobson وشابيرو M.Shapiro (الولايات المتحدة الأمريكية)، أ.ج.گريماس A.J.Greimas (فرنسا)، روسي A.Rossi (إيطاليا)، مايينوا M.R.Mayenowa، زولكيوسكي S.Zolkiewski (بولونيا)، ليفي J. Lévy شيكوسلوفاكيا، شوميان S.K.Shaumian (الاتحاد السوفييتي).

ويشير كلود بريمون Claude Bremond في التقرير الذي أعده حول هذا اللقاء العلمي الهام إلى أن الأربعين مداخلة التي قدمت لم تكن تطمح إلى استنفاد جميع التساؤلات الممكنة. ويقر الباحث بأن السيميولوجيا تخصص ناشئ ويقع في تقاطع العديد من الأهداف العلمية. فلا غرابة أن تعترض سبيلها بعض الصعوبات المقترنة بتحديدها وتشكيل وحدتها بالنظر إلى مختلف فروع العلوم الإنسانية التي ألهمت بحوثها. إن أعمال مؤتمر كازميريز تحمل علامة هذا التنوع، والمصير المجهول الآتي من الصعوبة في تحديد العلاقة بين السيميولوجيا واللسانيات. فالحديث عن أولوية اللسانيات وقيمتها المثلى في دراسة كل أنظمة العلامات **أمر غير وارد**. وهذا يعني استبعاد المنظور البارثي الذي اتخذ اللسانيات إطارا عاما لدراسة كل الأنظمة العلامية المعبر عنها باللسان وغير اللسان على نحو ما أثبتنا ذلك من خلال قراءة بارث للمشروع السوسيري وتقديمه بدائل منهجية تجعل من السيميولوجيا فرعا تابعا للسانيات. وظهرت بوادر هذا الاختلاف المنهجي في إصرار جاكوبسون وگريماس وزولكيوسكي على ضرورة الاحتفاظ باستقلالية السيميولوجيا بالنظر إلى اللسانيات حيث يبدو تقدمها مشروطا بتحقيق المشروع السوسيري للنظرية العامة للعلامات. وقد لاحظ بريمون أن تأثيرات أخرى مجاورة للسانيات

أو غير لسانية ظلت قوية بالنظر إلى عدد من المحاضرات المقدمة المرتبطة تقليديا في موضوعها بمقاربة منطقية أو جمالية، فأثارت مسألة العلاقة بين العلوم المتنوعة المعنية بدراسة الرسائل. ولئن حققت السيميولوجيا المكاسب من المواجهة بين المنطق واللسانيات على نحو ما صممها بادوتشيفا E.V.Padutcheva(مقارنة اللغات الطبيعية بلغات المنطق الرياضي) أو مانفريد بيرويش Manfred Bierwisch (العلاقة بين اللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية)، فإن الأمر لا يتعلق باختزال بسيط لهذه التخصصات، من واحد إلى آخر. وهذا يصدق أيضا على العديد من المسائل الجمالية التي يمكن أن تجدد بالمعالجة السيميولوجية ولكن حدود الاختصاص بينهما تبقى غير مؤكدة. بينما يبرز عرض مييز شابيرو Meyer Shapiro ، مثلا، وجود مدلولات رمزية على مستوى العناصر لعمل تصويري أو رسم(الخلفية، الإطار)، فإن بوريبسكي M.Porebski يميل إلى إنكار تجزئة اللوحة إلى علامات إيقونية مميزة: رسالة فاقدة لشفرة قارة، يتوقف بناء العمل الفني التشكيلي فقط على النشاط الفردي لمبدعه، من جهة، والمشاهد، من جهة أخرى. وفي هذا السياق لاحظ بريمون أن الرعاية اللسانية نفسها قد تبدو أحيانا مثيرة للقلق حيث أن قلة من اللسانيين فقط أبدوا رغبتهم(في) أو قدرتهم على مفارقة موضوع دراساتهم المركزي المعتاد-اللغات الطبيعية- والتفكير في بسط منهجهم على كل حقل أنظمة العلامات أو تحويله إلى نظام خاص. وعلى هذا الأساس، أشار بريمون إلى أن المجالات الوحيدة التي اكتُشفت حقيقة تقع بجوار اللغة اللفظية المباشر الأقرب إلى تمثيل امتدادات اللسانيات منها إلى الأنظمة السيميائية المستقلة. يتعلق الأمر بصفة أساسية ببحوث حول الأسلوب والبلاغة والشعر: وفي هذا المضمار، قدمت آنَّا ويرزبيكا Anna Wierzbicka وماينوا R.Mayenowa مداخلة تتناول العبارات المقتبسة، وتصدى آلدو روسي Aldo Rossi للرمز في الأدب الإيطالي القروسطي، وطبق تزفيطان طودوروف Tzvetan Todorov مقولات التقريري والإنشائي على نظرية الحكاية الأدبية، كما سعى ريفزين I.O.Revzin إلى بسط نفوذ النحو التوليدي بواسطة القواعد الإضافية باتجاه دراسة الأشكال الأسلوبية والمنظومة(شعرا) للنص. ويرى بريمون أن مداخلة جيري ليفي Jiri Levy تعبر عن جهد أصيل بذله في تطبيق نظرية التلاعب على مسألة الإبداع الشعري.

وانتبه بريمون إلى أننا إذا انتقلنا إلى أنظمة التبليغ التي لا تأتي مباشرة من اللسان، فستبدو نقاطها المعلمية مهمة على ندرتها على غرار العرض الذي قدمه كريستيان ميتز Christian Metz حول مسائل التقرير في أفلام الخيال، وسيبوك T.S.Sebeok حول السيميائية الحيوانية، وسيفيان T.V.Syvian الذي عرض للبطاقة وطقوس الآداب. كما عالج مييز شابيرو Meyer Shapiro دور العناصر اللاصورية في تشكيل الصورة- العلامة، وإيفانوف Ivanov وطوبوروف Toporov إعادة بناء أسطورة بروتوسلافية انطلاقا من التحليل الإيتيمولوجي لأسماء العلم.

وإلى جانب هذه البحوث، أعلن الوفد الفرنسي عن مشروع بحث حول سيميولوجيا الإيماءة. وألمح بريمون في النهاية إلى غياب رويت N.Ruwet الذي حرم المؤتمر من الانتفاع بالتأملات حول مسألة هامة مقترنة بالعلاقة بين الموسيقى والسيميولوجيا.

وفي أثناء تقييمه لفعاليات المؤتمر، لاحظ بريمون أن حقل البحوث السيميولوجية لم يحظ بتغطية شاملة. ومع ذلك، احتفظ المستوى المثالي لبعض هذه الوجوه بتأثيره الإيجابي على مجرى اللقاء. وقد اتضح على ضوئها رهان المناقشة النظرية التي أثارت أسئلة حول حدود الاختصاص السيميولوجي؛ ومن ضمنها وصف گريماس الكون العلمي والثقافة بصفة عامة باعتبارهما"تراتبية سيميائيات تخضع لنظرية عامة، كفيلة بالتحليل والتجاوز"، "شرط ومشروع أنسية جديدة". وأثار هذا الموقف تأويلات بعض الباحثين، وتحديدا جاكوبسون R.Jakobson الذي اعتبره متضمنا نوعا من "إمبريالية" السيميولوجيا واللسانيات الممارسة بالتتابع على العلم بعامة، ومختلف السيميائيات بخاصة. أما العرض النهائي لـ زولكوسكي S.Zolkiewski المخصص لتحليل دقيق للأطروحات البنيوية، من المنظور الماركسي، فإنه أفضى إلى تحفظات مماثلة استهدفت هذه المرة على نحو أدق مؤلف ليفي ستروسCl.Lévi-Strauss. ويرى كلود بريمون أن من أهم الدروس المستخلصة من هذا المؤتمر ضرورة التعجيل، على صعيد التعاون وتبادل المعلومات، بفك العزلة عن الباحثين سواء على المستوى الفردي أو على مستوى المناطق اللغوية أو المدارس الفكرية. قبل أن يفترق المساهمون في المؤتمر أقروا مشروع الجمعية الدولية للسيميائيات. وأنشئت لجنة تنظيمية يكون مقر سيكريتيريتها فرسوفيا Varsovie تحت إدارة ستيفان زولكيوسكي M.Stefan.Zolkiewski .وقد مثل فرنسا رولان بارث، إيميل بنفنيست، جوليان گريماس وليفي ستروس. وأول تظاهرة بادرت ببرمجتها الجمعية تنظيم مؤتمر دولي حول السيميائيات حدد بالفترة الممتدة من 25 أوت إلى 1 سبتمبر 1968. وبخصوص إنشاء هيئة للتعبير تسمح بالمناقشة المشفوعة بالبحوث، تم التوصل إلى حل لهذه المشكلة بإلحاق قسم جديد يحمل عنوان بحوث سيميائية بـ مجلة الإعلام حول العلوم الاجتماعية التي ترعاها اليونيسكو. وتكفلت لجنة خاصة متكونة من جوليان گريماس(فرنسا)، لوتمان J.M.Lotman (الاتحاد السوفييتي) وسيبوك T.S.Sebeok(الولايات المتحدة الأمريكية) وسكالموسكي W.Skalmowski (بولونيا) بتنظيم هذا القسم.